بأي ذنبٍ أُخذ

الوطـن لا حاجه لـه بأمثالي. المقهـي هو مكاني المفضـل. أما البطالة فهي مهنتي، ومحنتي تشتد كلما ازداد عمري يومًا.

كنت جالسًـا كعادتي في المقهي وأحتسي كوبًا من القهوة. لمحت رجلًا مهندمًـا يرتدي حلة سـوداء أنيقة بـدون ربطة عنق. كان يحـدق بي، كأنه يعرفني. ولكنه ليس متأكدًا أنني الشخص الذي يعرفه. اقترب مني وقال:

خالد الشناوي؟.. حدقت فيه لبرهة ثم بحماسٍ قلت له:

نادر عبدالجليل.. ثم تعانقنا عناقًا حارًا.

نادر وأنا صديقا الدراسة داخل قسم واحد، وثكن جامعي واحد.

ـ يا راجل وحشتني، ووحشتني أيام الكلية.

ـ وأنت والله يا نادر واحشني، ووحشتني أيام الشقاوة.

ـ استنيى أجيب كرسي.. اتنين شاي يا عم محمد.

ـ إيه يا ابني اختفيت فجأة كدا؟

ـ كنت في أمريكا، الحمدلله عملت بزنس واتجوزت كمان.

ـ بجد؟ ما شاء الله، وخلفت ولا لسه؟

ـ ضحك نادر، ثم أردف قائلًا:

ـ لا مبتخلفش.

ـ أنت عاوز كدا عشان تعيش حياتك، مش كدا؟ من غير عيال ووجع دماغ.

ـ ضحك نادر مرة أخرى وقال:

ـ لا أنت مش فاهم، هي مينفعش تخلف عشان كبيرة في السن.

ـ سنها كام يعني..؟

ـ مش كتير ٥٩ سنة بس.

ـ يخربيتك أنت اتجننت؟ ولا أنت مستنيها تموت وتورثها..؟

ـ سيبك من دا كله.. أنت عامل إيه وبتشتغل إيه؟

ـ أنا مش لاقي شغل مناسب، ومش عارف أعمل إيه. أنا جوزت صحابي كلهم وأنا لسه قاعد أهو، مش عارف حظي عامل كدا ليه؟!

ضحك نادر، يااعم طول عمرك نحس من أيام الكلية، بس كنت شقي وبتاع بنات.

ـ أيام وراحت لحالها يا راجل، حتى البنت اللي حبيتها اتجوزت ومعاها عيال.

ـ طب بقولك: إيه رأيك في اللي يوديك أمريكا؟

ـ أمريكا؟

ـ أيوه فكر كوويس. عمومًا لو فكرت تروح أنا هجهزلك الأوراق المطلوبة، وما تخفش التكاليف كلها عليّ، أنت زي أخويا وإحنا عشرة وبينا عيش وملح، أنت ما عليك هناك غير إنك تسعي. والشغل هناك كتير أوي، علي قفا من يشيل.

ـ بس..

ـ آدي أرقامي لو حبيت تسافر كلمني..

تناولت الكارت ثم شردت في التفكير. عن احتجاج أمي، وسخط أبي، لكن لا بأس سوف أقنعهم.

ـ يلا بقي سلام يا عم خالد وفكر كويس وابقي كلمني.

ـ مع السلامة.

تزوج من عجوزة شمطاء. يا له من مجنون!

ولكن الأمر حقًا يستدعي الجنون، فهيئته وسيارته الفارهة تقول أنه أصبح مليارديرًا. وصلت إلى المنزل شاردًا. تناولت لقيمات على الغداء ولم أتحدث مع أحد. كنت أفكر في أمر الهجرة، أمر صعب. ولكن لما لا.. فهنا لا أجد عملًا مناسبًا، فسأبحث عنه بالخارج. فكرت في الأمر طوال الليل. شيء ما يقول لي: هاجر، فالهجرة حقك، والحق أحق أن تتبعه.

رحت أتأمل الكارت الذي أعطاه لي نادر، ثم تناولت الهاتف المحمول وسجلت أرقامه وعزمت أنني سوف أحادثه صباح غد.

وفعلًا حادثته، واقنعت أبي، وأمي أيضًا بالأمر. الأمر صعب جدًا

عـلى أمـي، خافت أن تأخذني الغربة مثل أخيهـا الذي ذهب ولم يعد، لا يعرفون عن أمره شيئًا. وخلال إسبوعين كان كل شيء جاهز.

أخذت الأوراق والجواز، وجهزت حقيبة سفري، وودعت أمي وأبي وإخوتي.

أخـذت أحدق بالشـوراع لا أعرف أحدًا. كنـت أجيد الإنجليزية. فأوقفت سـيارة وشرحت للسـائق أن يأخذني إلي فندق سعره مناسب. ففهم وأوصلني إلى ما طلبته، قضيت ليلتي الأولى.

وفي الصبـاح عزمت عـلى أن أبحث عن عمـل، ولكن رجعت آخر النهـار بخفي حنـين. الأمر ليس سـهلًا كما كنت اعتقـد، فالكل يهز لي رأسـه ويقولون لا نحتاج، وهكذا طيلة عشرة أيام والمال الذي بحوزتي أوشك على النفاذ. كنت أجلس في كافتريا الفندق، أفكر في أمر العمل، مـاذا لـو نفذت نقودي كلها ولم أجد عملًا؟ سـأنام في الشـارع، ماذا لو قرص معدتي الجوع؟ أسرق؟!

آاااه كم أن الغربة صعبة.

تجلـس عـلى المنضدة قبالتي عجـوز، أظن أنها في العقـد الخامس من عمرهـا، نظراتها غريبة جدًا، تغمـز لي، يا لها من عجوز مجنونة. تقدمت ثم جلست قبالتي، فأردفت قائلة: ألا تريد متعة ومالًا؟ وتتكلم بغنج.

قلت لها: ماذا تقصدين

قالت: أعطني إحسـاس، وأعطيك مالًا. كنت قد فهمت ما تقصد، ولكنني كذبت أذني، وهذا ما جعلني أقول لها: عفوًا لم أفهم بعد.

ثم قالت: تعال معي.

قلت لها: لن أتحرك من مكاني.

قالت لي: كما تحب.

تركتني ومشت، تقدمت خطوات مبتعدة ثم التفتت، وقالت لي فكر في الأمر.

لم أرد على كلامها، لم أقل سوى أنها مجنونة.

ولكن لماذا أنا؟!

أظن أنها تراني كثيرًا هنا فأعجبت بي. أو انتبهت إلى أنني دائمًا ما أبحث عن عمل،

لا أعرف.

ذهبت إلى الغرفة، لم أجد بحوزتي سوي ٥ دولارات.

يا إلهي سوف أطرد من الفندق ولم أجد عملًا بعد.

أخذت تدور فكرة العجوز في داخل عقلي، تارة أهز رأسي كأني أنفض هذه الأفكار، وتارة أخرى أفكر في أنني أحتاج المال ولا أجد عملًا.

في اليوم التالي تعمدت أن أجلس في نفس المكان. ما إن رأيتها، تقدمت نحوها بضع خطوات، ثم ترددت في بداية الأمر. لكنني أكملت سيري، جلست قبالتها، قلت لها موافق، انفرجت أساريرها. لم أكن أعلم أنها محرومة من ذلك الإحساس لهذه الدرجة -الأمر مثير للشفقة حقًا- ضربت لها موعدًا على أن نلتقي مساءً في غرفتها بالفندق.

كنت ألتفت خلفي بين الحين والآخر، وكأني لص سرق للتو، وخائف من أن يكتشف أمره. طرقت على الباب طرقات خفيفة، ففتح الباب على الفور، سحبتني للداخل.

حدث ما تريد وتركتها عارية الجسد علي السرير، بصقت في وجهها، ارتديت ملابسي بسرعة وخرجت علي الفور. وذلك بعد أن أخذت المظروف (المبلغ) الذي اتفقنا عليه. ما إن دلفت باب غرفتي، أسرعت فورًا إلي الحمام وأخذت أتقيأ، ثم خرجت أقول ما الذي فعلته. أخرجت المظروف من بنطالي ورميته أرضًا. لم أنم ليلتها، دخنت علبتين سجائر، كنت كلما تذكرت ما حدث أبصق.

في الصباح عزمت علي أن أترك الفندق. ولن أكرر ما حدث بالأمس، لا أحتاج لفعل هذا كي أحصل على المال. وأنا أرتب حقيبتي وعزمت علي أن أذهب، تذكرت قصة أبي التي رواها لي عندما أخبرته بأني سأسافر؛ لأعمل في أمريكا. «أحد أصدقائه القدامى، الذي سافر إلي فرنسا دون أوراق رسمية، وعندما قبضت عليه الشرطة لعرضه على السفارة وترحيله لبلده، فر هاربًا، ولم يكن بحوزته أي شيء، كان أعزلًا حتى من هويته. فتشرد والجوع قرص معدته إلى أن جعله يسرق، وانضم إلى طائفة المشردين. إلى أن انتهى به المطاف إلى الانضمام إلى جماعة إرهابية ثم السجن».

لم تؤثر فيّ القصة حينها وطمأنت والدي بأن أوراقي رسمية، وسأجد وظيفة مناسبة. أرعبتني القصة وجعلتني أتراجع، بل أتراجع وأتراجع.

لعب الشيطان في عقلي وأخذت أفكر في الأمر. ماذا سيحدث لو متعت بعضهن وأخذت منهن مالًا؟ فهن يحتجن الإحساس، سأعتبرهن مجرد سيدات أعمال، أو أنهن صفقة رابحة. وفعلًا أخذت أمارس هذا الفعل لمدة عام كامل وأكثر. تارة مع عجائز وتارة أخرى مع فتيات. كنت قد تعرفت على الكثيرات من كبار السن. وكنت أصاحبهن حتى أن إحداهن اشترت لي سيارة، وأخرى اشترت لي بيتًا مؤثثًا بأثاث عصري وفاخر. ولذلك لم أترك الفندق، فإن لي زبائن فيه، كنت غير متأثر بأي إحساس بقذارة ما أفعل. الأمر بالنسبة لي مجرد صفقات تجارية رابحة. هذه الحياة تعودتها واستولت عليّ. ما جمعته من أموال جعلني لا أشعر بالذنب.

إلي أن قابلت إيلا، إيلا فتاة صهباء ذات شعر مسترسل، عينيها زرقاوتين وشفتين ورديتين نحيفتين. أحببتها، أردتها زوجة، كان قرارًا صعبًا أن أقطع علاقتي بكل ما يربطني بهذا العمل. لكن فعلًا حدث، وأختفيت تمامًا، وبعت البيت وقررت العيش في ولاية بوسطن. وأن أبحث هناك على عملٍ جديدٍ بعيدًا عن القذارة والقرف، وأتزوج من إيلا ونعيش حياة مستقرة، وأنجب أطفالًا، غير أني سأحصل على جنسية.

في يوم زفافنا وبعد إنهاء مراسم الحفل، كنت غير قادر على ممارسة الحب معها. تبللت عرقًا، أحسست بإعياء شديد، كدت أجن، لا أدري ما حل بي؟

ذهبت في اليوم الثاني إلى الصيدلية اشتريت منشطًا. ولكن لا فائدة، كدت استشيط غضبًا، واليوم الذي يليه نفس ما يحدث في اليوم السابق. في اليوم

الرابع ذهبت إلى الطبيب، طلب مني بعض التحاليل والفحوصات اللازمة.

بعد أن فحص الطبيب نتائج التحاليل قال:

إن جهاز المناعة تدمر بشكلٍ كبيرٍ للغاية، بسبب الإيدز. وأنت عرضة للإصابة بورم سرطاني، حسبما تقول نتائج التحاليل. بعدما سمعت ما قاله أصبت بالصمم، لم أسمع أي كلام آخر، كنت أرى شفتيه تتحركان فقط، تجمدت كل حواسي، أحسست بزلزال في داخل صدري، رحت في صمت طويل.

وصلت إلى البيت، سألتني إيلا ما بي. قلت لها نصف الحقيقة.

ـ أنا مصاب بورم سرطانيٍّ، سأسافر مصر ثلاثة أيام وأعود، قلت لها ذلك. وأنا أصلًا قررت أن أذهب ولن أعود مرة أخرى. رغم رفضها وإلحاحها بأن تأتي معي إلا أنني أقنعتها بأن تنتظرني في بوسطن ولن أتأخر. وازداد اقتناعها بالأمر عندما قلت لها أنني حددت ميعادًا لعملية جراحية.

وها أنا عائد لوطني، فالعائدون دائمًا ما يحملون أفخر أنواع الهدايا للعائلة والأقارب والأصدقاء، وأنا أحمل هوية أمريكية وأمراض تفشت في جسدي.

وها أنا لازلت أتعالج في أقذر المستشفيات، لا أدري من ألوم، وطني الذي أجبرني علي الغربة.. أم نفسي التي أغوتني..

(تمت)